

مناقب الشيخ بن الكبير وجهوده في نشر المذهب المالكي

كهرالشيخ الحاج السالم به إبراهيم

شيخ المدرسة الداخلية بمسجد الجيلالي أدرار



بعد حمد الله، والصلاة على رسول الله ﷺ: إن الدهر يومان:

- يوم يسجل الناس فيه حضورهم وينقشون أسماءهم على ذاكرة التاريخ،

- ويوم منهم يمر كالسراب لا تحسب فيه حتى الدقائق والساعات.

وعلماءنا ﷺ من الصنف الأول، فالناس والزمان يعترفون لهم بالحضور
الفعلي في حياتهم من خلال ما يتركون من أفعال وبصمات منقوشة في الذاكرة،
ولهذا فإن للعلماء في كل عصر وأوان مكانة متميزة بين الناس حتى لدى من لا
يقيمون للعلم وزناً، ولا ينتسبون إليه، كيف وهم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا
ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، وكفى بأهل العلم شرفاً أن الله تعالى منحهم
فضلاً عظيماً نوه بذلك في غير ما آية في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁽¹⁾، وقال ابن عباس رضي الله عنه: العلماء فوق المؤمنين
مئة درجة، بين كل درجتين مائة عام.

وكيف لا يكونون في هذه المنزلة، منارات الهدى يهتدي بهم أهل عصرهم
إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في آجلهم وعاجلهم، إن عاشوا فهم أمناء الله على
خلقه، وإن تركوا الدنيا فذكرهم باق على مر الأيام والأزمان.

(1) سورة المجادلة/11.

وشيخنا سيدي محمد بن الكبير طيب الله ثراه والحمد لله من هذا الصنف، فهو علم الأعلام بلا منازع، وعمدة المتقين في زمانه، وقدوة الصالحين، وعدة العلماء العاملين، وكان سراجاً في أدرار أهله عناية الله من منحه الجليلة، كان أنموذجاً فذاً في الإخلاص لله تعالى، وقوة الشكيمة، إن سبرت غوره وجدته بحراً في العلم وموسوعة في الأخلاق، تربع على علم الأدب والمعاملات، وشربت نفسه من العلوم الدينية، وبلغ العليا في التربية.

وعرف كيف يستميل القلوب، وكيف يوجهها للتربية المبنية على حب الله ورسوله، والفعل الطيب، والإنتاج المثمر للعقول السليمة.

ولقد اختاره الله لتجديد هذا الدين، وتوحيد رب العالمين، فقد ربي نماذج من الأعلام ومن الأجيال التي تمكنت فضل الله من الرسوخ العلمي والفكري، وترك بصمات تذكروا ولا تنكروا، وساهموا في تفعيل الذهب المالكي وترسيخه، وكان منبعاً لا ينضب، وقطب دائرة لعلماء زمانه، وترجم الطريقة الصوفية بعمله وزهده وورعه، ولم يتوان في خدمة الشريعة بكيفية مرنة لا غلو فيها ولا تعنيف، ولا تطرف ولا تشدد.

كان في حياته بسيطاً مع أنه كان موجهاً ومصلحاً وورعاً وتقياً، إن جلست إليه أحسست أنك أمام عملاق في العلم الصحيح، وإن استشرته دلّك على الطريق الصحيح، جُبِلَ على بذل النصيح والتعليم للناس، فقيه محنك، ومحدث بارع، أما في علم الكلام والمنطق فتعجز أن تعرف له في ذلك قراراً. إن تحدث إليك أعجبك كلامه وسمته. فذُّ في معاملته للفقير والصغير، والغني والحقير.

إن استضافك فالجود السخاء والكرم وحسن الاستقبال سجية مطبوعة فيه، يغمرك وأنت في ضيافته بشذى من المودة، وبعقب من الكلام الندي، تنسى بهما وحشة الغربة وبعد الديار عنك، ولسان حالك يردد:

عزمنّا على أن نقيم ثلاثاً فطابت لنا حتى أقمنا بها شهراً

ومن هنا فليس بدعا وغريبا أن أتناول في هذه المداخلة جانبا خاصا في حياته، ولا غربة أيضا تحدثت عنم ملاً الله قلبه بالإيمان، ويسره للذكر وتلاوة القرآن، وإن صمت ففي فكر، ويعجبك حاله ويدلك على الله مقاله.

إن الحديث عن مناقب شيخنا حديث عجب، وأكبر من أن يختزل في مقالة أو مداخلة، أو تُخصص لها دقائق معدودات، ولكني - وقد انتدبت إلى هذا - أراني مضطرا لأقدم بعض المقتطفات، وعزائي في ذلك أن مالا يدرك كله لا يترك جله، فأقول ومنه أستمد العون والتوفيق، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

إن حياة الشيخ كانت مليئة بالمناقب، وبالمحطات التي تتطلب الدراسة والتمحيص؛ لتكون نبراسا تهتدي به الأجيال الصاعدة في مدلهامات الحياة، تستلهم منها الدروس والعبر.

وفيما يلي أهم تلك المناقب:

أولا - لقد وفقه الله منذ نعومة أظفاره أن يشتغل بطلب العلم، ولم يشغله في ذلك أي مجال استثمار آخر، شملته عناية الله لملء الفراغ المأهول الذي كانت تعاني منه الأمة، والمتمثل أساسا في انتشار الجهل والأمراض القلبية والعصبية المقيتة تحت وطأة الاستدمار الصليبي الغاشم، كما وفق الله والده أن يهيئه ليشب على بساط الصلاح والفلاح، وأدرك هو أهمية طلب العلم، فراح يطلبه، فاتصل بعالم زمانه وشيخ أوانه، سيدي أحمد بن ديدي رحمته الله، الذي كان يشار له آنذاك بغزارة العلم، وبهيبة ووقار غير معروفين في غيره، الذي توسم في تلميذه أن يكون ذا شأن، فمنحه رعايته وعنايته، وسربله بعطفه ورضاه.

وفي زمن يسير غرف من فيض شيخه علما وحكمة، وفهما ودراية، وتزود منه بدعوات الخير والبركة، وفتح الله عليه من فضله الواسع، وذلك فضل الله يقذفه في قلب من يشاء، وكيفما يشاء، والله ذو فضل عظيم.

فتح الله عليه فتحا عز نظيره، وأسبغ عليه من نعمه الظاهرة والباطنة في مرحلة مكوثه، فكان الطالب المجد المثابر على اقتناص العلم، ويسرت عليه ذاكرته القوية استيعاب مجمل فنون المعرفة، والتشرب من دقائق العلوم، ففهم جزئياته، وكان ملماً بتفاصيله الدقيقة وفروعه الواسعة، وتلك منقبة أخرى من مناقبه، ففي مراحل عمره الأولى وفي عز شبابه تربى في كنف العلم، وتحت رعاية شيخ عرف بكرامات شتى، ونلك عناية الله بالشيخ سيدي محمد بن الكبير.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ثانياً - إن رسولنا الكريم ﷺ قد ضمن لسبعة من الناس أن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله، وذكر في حديث السبعة هذا شاباً نشأ في عبادة الله، فهل هناك عبادة أفضل من مجالس العلم؟ ومن تعلم العلم، وإن حضور مجلس واحد خير من عبادة ستين سنة، ومن شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض.

ثالثاً - مكنه الله من بسطة في العلم؛ نتيجة جهده وكده، وأصبح بعد تخرجه منها عالماً حكيماً، ومربياً وخبيراً، ولقلة ذات اليد توجه إلى بادية المشرية فعلم بها مدة، سافر إثرها إلى تلمسان حيث كان هناك عالم رباني من العلماء الأجلاء وهو الكرزازي السيد بوفلجة، واستفاد من بحر علمه وفيوضات أسرارهِ، وأصبح طبيباً ماهراً في معالجة النفوس ومعرفة دوائها ودوائها، ولتقدم أبيه في السن قفل عائداً إلى مسقط رأسه بودة بزاز علمي، وبنظرة ثاقبة للحياة، وبتجربة جديدة، وأصبح في مرحلة العطاء، وشعر في قرارة نفسه أنه يجب عليه أن ينشر ما يحمل في صدره بوازع الأمانة العلمية والفكرية التي يحملها، معتمداً في ذلك على من بيديه خزائن السموات والأرض. وما دامت الغاية نبيلة فإن ما وراءها من مشاق وصعاب ستزول بحول الله تعالى، وامتنطى قول الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

فلم ييأس ولم يعجز، ولم يستسلم، ولم تلن عريكته أمام قلة الإمكانيات وندرة الوسائل، وتلك همة عالية قلما تكون في غير فحول الرجال، وهداية ربانية يوفق الله لها من يشاء من عباده من أهل الفضل والكمال.

رابعاً - كانت بداية مشواره في مدينة تميمون، ولأمر ما، وحكمة أرادها الله، يضايق من طرف الاستعمار فيوقف هذا المشوار الذي كان بداية سعيدة وموفقة، ووسيلة لانتشار صيته وشهرته، فما كاد يحط عصا الترحال بعد العودة إلى مسقط رأسه حتى هرع أعيان مدينة أدرار إلى شيخه سيدي أحمد ديدي يستنجدون به، ويلحون عليه في أن يتخذوه إماماً ومدرساً بأدرار، فلم يتردد في تلبية مطلبهم وتحقيق مأربهم، فأشار على تلميذه محمد أن يستجيب إلى ذلك، ورب إشارة أبلغ من عبارة، فإن من فتح الله بصرهم وبصيرتهم على الأشياء، ينظرون إليها نظرة: كنت بصره الذي يبصر به... وتم بتوفيق الله وكرمه لشيخنا ما كان يأمله ويسعى لتحقيقه، ففتح مدرسته، وكانت باكورة لأعمال أخرى جليلة. وتعد هذه البداية السعيدة بأدرار بداية لطريق طويل وهام في حياة الشيخ، ومنقبة من المناقب الكبرى له. فقد أثمرت مدرسته، وأينعت وأثمرت ولا تزال، وظهرت نتائجها، وآتت أكلها للناس بإذن ربها ببركة صاحبها، وكانت منبع سعادة وخير لابن الغني والفقير، وللصغير والكبير، ولابن الشمال والجنوب، ولمن يقصدها من أبناء القارة السمراء، وإخوانهم المسلمين من القارة الأوربية، فانتشر خيرها بذلك شرقاً وغرباً، واجتمع في رحابها طلاب العلم من كل حذب وصوب.

وهكذا سرى مداها ومددها في تلك الربوع، فأمتد تأثيرها إلى تلك الأصقاع، وهكذا فإن هذه المدرسة وأثرها تجاوز مريع إقليم توات وضواحيها، بفضل جهود الشيخ وبركته وتفانيه، وفوق هذا بفضل نيته الصادقة وإخلاصه لرب العالمين، وأصبحت تهفو إليها الأفئدة، وتشد إليها الرحال، وتلهج الألسنة بذكر صاحبها وتثني عليها، وهذه المدرسة بفضل الله قد انبعثت عنها مدارس مماثلة لها ببركة الشيخ، وفتح العديد منها بإشارة منه في حياته.

معشر الحاضرين - لم يكن الشيخ يرى لنفسه مزية في نشر العلم وتوفير كافة الظروف لتحقيق ذلك، وإنما كان يرى أن لعلمه هذا فضيلة يثاب عليها المخلصون باعتباره الوسيلة المثلى لهداية الناس إلى الناس إليه الناس، وكان يرى أن حياته ليست ملكاً له، وعليه أن يسخرها فيما خلقت لأجله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾، أي ليعرفوني، وهل ثم معرفة أو عبادة دون علم؟

خامساً - لقد اقتفى آثار شيخه في نشر العلم وتعليم الناس ما يفيدهم في العاجل والآجل، وجند لذلك نفسه وجهده وماله، وما كان يملك من عقار، ولذلك فتح الله عليه من فضله الواسع، ووسع الله عليه بما لا يدخل تحت حصر، ومع هذا لم يدخر هذه الخيرات لنفسه، ولا اتخذها وسيلة للغنى والثراء، ولا كان جامعاً للمال شراً في البحث عن الاستزادة منه، وإنما كان ينفق ذلك على طلبته، وما فضل له يوزعه يميناً وشمالاً، لا يخشى عاقبة فقر ولا انقلاب دهر، وكان يردد دائماً بملء فيه قول رسول الله ﷺ: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرة ماء. ويقول على رأس الملاء: طالب العلم تكفل الله برزقه. وما اعتبر الأوراق المالية مالاً إلا في باب الزكاة، ولكنه كان يسميها كاغداً. ولا شك أنه كان بهذا في مرتبة الصديقين؛ لأن حب الدنيا والرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين، كما أن مدرسته ومنزله بكافة مرافقهما كانت مأوى لعابري السبيل، يلتقي فيها القاصي والداني، ولم يتأفف في يوم ما من استقبال أحد، ولا أغلق بابه في وجه قاصد، وإنما كان يستقبل الناس بالبشاشة والترحاب وسعة الصدر، وكثيراً ما كان يواسي الفقراء والمحتاجين ومن تقطعت بهم السبل، ويبعث أحياناً للعاجزين من هؤلاء بالمال والمؤن ووسائل العيش دون من أذى، وكثيراً ما يدرك بفراسته حاجة المحتاجين الذين لا يسألون الناس إلحافاً.

(1) سورة الذاريات/56.

وهو شعور بل سلوك في نظري ينم عن مكاشفة خاصة يمنحها الله لمن فتح عليه بصيرته فيكون هو بصره الذي يبصر به.

سادساً - كان مثلاً في الصبر وتحمل المشاق والمعاناة بصدر رحب في ثقة بالله بالفرج في كل أموره، والاتكال على الله في تسييرها، رائده في ذلك: من استعان بالله تيسرت مطالبه ونجحت مآربه، وقول الشاعر:

إذا لم يعنك الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ضللت ولو أن السماك دليل
استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك مصيبة فتجمل

وذلك سلوك أهل التقوى والعارفين بالله.

سابعاً - وسع الله له أفق التفكير في تسيير مدرسته وشؤونه كلها، فقد كان يديرها بنفسه، ويدبر لها ويوجه المساعدين له إلى طريقة تنفيذها وحسن القيام بها مع اتساع مجالاتها، وكان لحصافة رأيه السديد أكبر الأثر، وهذه الأشياء إنما تصدر من نور في القلب يضعه الله في قلب من يشاء من عباده. ومع هذا فقد كان لا يحب أن يشار له بالبنان بأنه من أهل الكرامات والأمور الخارقة للعادة، أو أنه له مزية أو دور في أمر ما، إنما ينسب ذلك لله:

كأني آلة وأنت محركي أنا قلم والاقتدار الأصابع

ثامناً - أوقف حياته على العلم تعلماً وتعليماً، وإفادة واستفادة، وخرج بفضل الله الآلاف من الطلبة هم الآن يؤطرون القطاع الديني عبر الوطن وخارجه، بصفتهم أئمة وخطباء ومرشدين، ودعاة لا أدعياء للعلم، بل ويوجد منهم أساتذة في مختلف أطوار التعليم بما في ذلك التعليم الجامعي، وإطارات سامية للأمة في مجالات أخرى.

تاسعاً - ركز تعليمه في مجال الفقه والعبادات على المذهب المالكي، وكان يردد على رؤوس الحاضرين: نحن مالكيون - إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

ذلك المذهب الذي اختاره سكان توات، ومعهم سكان الجزائر والمغرب العربي كله، تمسكوا به واعتمدوه في العبادات والمعاملات، حتى صار جزءاً لا يتجزأ من حياتهم وقوام ذاتهم، وأساس بنائهم الفكري، إلى جانب العقيدة الأشعرية وتصورهم السني.

قال الإمام عبد الواحد الأنصاري بن عاشر:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

ثلاثية ذهبية ظل الشيخ طوال حياته يدعو إليها ويرسخها، ويعمل على توطيدها بحكم إنها حصيلة شرب من معينها الشعب الجزائري قروناً طويلة، تناقلها جيل بعد جيل، وورثها الخلف عن السلف، والتكبد عليها يعد طعناً في تاريخنا المجيد.

وقد سجل الشيخ - جزاه الله خيراً - في نشره للمذهب المالكي الرقم القياسي أو الرقم الصعب، الذي لا يمكن تجاوزه كما يقولون؛ لأنه كان يعتبر التفقه في الدين سبيلاً للعبادة الحقة، والطريق الصحيح إلى الله إنما يتحقق في امتلاك ناصية الفقه، وتطبيقه نصاً وروحاً.

تفقه فإن الفقه أفضل قائد إلى البر والتقوى وأعدل شاهد

هو العلم الهادي إلى سنن الهدى هو الحصن منجي من جميع الشدائد

وكان رحمة الله يلقب بالفقيه "السي محمد"؛ لأنه كان حريصاً على نشره وتطبيقه قولاً وفعلاً، وكانت مرجعيته الأساسية تلكم المراجع المتفق عليها، والتي وقع الإجماع عليها، وعلى ما فيها؛ باعتبارها مبنية على الأسانيد المتصلة برسول الله ﷺ، وأذكر هنا أنه ما ضل من ضل إلا من أفتى بغير علم وأتبع هواه،

وخرق المذاهب المتفق عليها وتصدر الفتوى، وأضله الله من حيث لا يشعر بكلمة: «قال الله قال رسول الله» - وهي كلمة حق تحمل بين طياتها سراب الباطل، يقذفها أعوان إبليس، لتغيب الحق ونصرة الباطل، واتهام أئمتنا بالضلال، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قلت: إن شيخنا كان مستمسكاً بهذا المذهب حتى النخاع، وكان يردد المقولة الذهبية الواردة عن الإمام مالك: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. ولأن هذا المذهب كان وسيلته للحقائق الذوقية، وهكذا عصمه الله من مزالق الطريق ومنعرجاته الخطيرة، وحقق الله رجاءه، فكان من عباده المخلصين، ويتجلى ذلك في اتكاله وتطبيق أوامره ونواهيه، وعزوفه عن الدنيا وحطامها وزخرفها، وبذلك تربع على سنن الهدى، وكانت له في ذلك مناقب لا تعد ولا تحصى.

عاشراً - رسم لنفسه من بداية مشواره خطوطاً حمراء لا يمكن تجاوزها، وضوابط شرعية لا يجوز التخلي عنها أو إلغاء جزء منها - فلا بُد من الاستقامة - وهي بالنسبة له خير من ألف كرامة، ولا بد أيضاً من تعظيم ما عظم الله، والوقوف على أمره ونهيه، كما أن شخصيته الفاضلة لم تحمل من متناقضات في القول والعمل، وكان متميزاً بلامح وصفات المؤمنين، وبساطة العلماء المتقين، ربط نفسه بالله، وكان سعيه لله، وكان مع الله، فكان الله معه، ولسان حاله يقول:

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقي

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقي

حادي عشر - كان ينوه بالقدوة ويدعو إليها، والقدوة بالنسبة له إنما تكون بمن كانوا يسيرون في طريق الله من العلماء العاملين، وأولياء الله الصالحين، ورثة أنبيائه المرسلين، أما غير هؤلاء ممن يخالفون شرع الله، ولا يخافون ربهم، ويأسرون الناس بمعسول كلامهم، فإن علم هؤلاء من إبليس وجنوده.

ثاني عشر - لقد جمع بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، فكان على معرفة يقينية بالله، يخصص بها تقواه، ويبين عاقبة من يخالف شرعه ولا يخشاه، وهو فضل من الله عظيم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثالث عشر - أصلح نفسه فأصلح الله به خلقاً كثيراً، وكان أمة في الأسوة الحسنة بعلمه وعمله، وكلماته وسلوكه - بمروءته وهندامه - باعتداله في سمته وهيئته، في سكوته ونطقه، وتلك صفات أساسية للشخصية المتوازنة.

رابع عشر - استطاع في ظرف وجيز - بفضل الله - أن يضيفي على المنطقة سمعة متميزة، بفضل علمه وعمله، وجعل لمدرسته طابعاً خاصاً متميزاً في الهندام والسلوك والتقوى: ﴿وَلْيَأْسُ الْتَقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾⁽¹⁾.

خامس عشر - إن من نور المعرفة والعلم الذي يمنحه الله للراسخين من الرجال الكمل سرعة البديهة، وحضور الذهن في الإجابة عن الأسئلة الشرعية من مصادرها الصحيحة، ولا سيما في مواجهة الحجة بالحجة، ومقارعة أهل الهوى في الفتاوى المضللة، فكثيراً ما كان يرد عليهم حججهم ويبطلها، مستدلاً في ذلك بالأدلة اليقينية الصحيحة، ولا سيما المتطاولين على التقوى وأدعياء العلم، فكثيراً ما كان يفحهم بأدلة ثابتة كتاباً وسنة وإجماعاً، فلا يستطيعون بعدها إلا أن ينصاعوا لإجابته.

تلكم بإيجاز هي بعض مناقب شيخنا اختصرتها امثالاً للوقت المحدد لهذه المداخلة. وإذ أعبر عن شكري لكرم إصغائكم، فإني اعتذر لديكم عن عدم الإيفاء للموضوع حقه كاملاً، لاعتقادي أن العديد من الحاضرين هنا شاهد بأم عينه على المناقب وزيادة، أو كان هو منقبة من مناقبه، بفضل انتسابه لمدرسته العامرة. رحم الله شيخنا يوم ولد، ويوم تعلم، ويوم علم، ويوم مات، ويوم يبعث في الخالدين. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

(1) سورة الأعراف/26.